نحو وعي إسلامي معاصر

«١٤»

في التفسير الإسلامي للتاريخ
المسألة الحضارية

د. عماد الدين خليل

بسم الله الرحمن الرحيم

١٤٠٤ هـ ـ ١٩٨٣ م

في التفسير الإسلامي للتاريخ
المسألة الحضارية

(١)

تزداد « أهمية المسألة الحضارية » في التفسير التاريخي يوماً بعد يوم ، بحيث أنها تغطي مساحة واسعة في أي مذهب للتفسير مهما كانت بنيته ، وتشكل (القاسم المشترك) بين المذاهب جميعاً . واما في (التفسير الحضاري) لتوينبي فتغد والمسألة سدى مذهبهو لحمته ، وتشكل مضامينه واطره . وما من شك في أن الحصيلة النهائية لدور الجماعة التاريخي تقاس بمدى دورها الحضاري ، حماية ونقلا أو ابتكارا وابداعا . وتختلف ـ بعد ذلك ـ المواقف والاتجاهات . فابن خلدون مثلا يرى في التحضر مسألة محتمة تجيء دائما في أعقاب توطن العناصر البدوية في الامصار ، وتجاوزها مرحلة التنقل والرعي ... وهيجل يراها مسألة دايناميية شاملة تنبثق عن صراع النقيضين في

عالم الافكار في تسلسل طويل ينتهي الى مرحلة تجلي المتوحد حين يصل العقل الكلي قمة تعبيره وكامل انطباقه على حضارة العالم ومؤسساته ، ومن خلالها ، واما ماركس فانه يأخذ عن هيجل دايناميه الحركة الحضارية المتولدة عن صراع النقائض الا أنه يقصرها في نطاق المادة ووسائل الانتاج و (الظروف) التي تعمل فيها ويرى في هذا المثلث القاعدة التحتية التي تنبثق عنها سائر الفعاليات والمنجزات الحضارية الفوقية متأثرة بها ، متلونة بلونها ، حاملة دماءها ، متكونة بخلاياها ، حتى لو كانت قيما خلقية وممارسات دينية ومنازع عاطفية وعلاقات جمالية .. اما توينبي المتأثر بسلفه شبنجلر الى حد كبير ، فيراها وليدة مقدرة الجماعة الانسانية على الاستجابة للتحديات البيئية ، الجغرافية والبشرية ، المحيطة بها ، ويتناسب حجم العطاء الحضاري كما ونوعا تناسبا طرديا مع حجم الاستجابة وامدائها بمقاييس الكم والنوع كذلك .

ما الذي يقول لنا كتاب الله في هذه المسألة ؟ ان كلمة (حضارة) و (تحضر) لم تكن شائعة في استعمالات العربية اللغوية اول مرة ، وطيلة القرون التي أعقبت مرحلة الفتوحات الاسلامية ، ويكاد ابن خلدون ان يكون أول من نبه اليها واستخدمها في (مقدمته) الا أن اصطلاحه الاثير الذي كان يستغني به معظم الاحيان عن هذه الكلمة هو (العمران البشري) الذي يقابل (الحضارة البشرية) .. ومهما يكن من امر فان المصطلح الحضاري ، بتصريفاته المختلفة ، قد فرض نفسه في القرن الاخير ، سيما بعد الاحتكاك الثقافي الشامل بين الشرق والغرب وتقدم الاخير في حقول التفسير التاريخي والدراسات الحضارية .. وبدلا من هذا فاننا سنلتقي من خلال القرآن الكريم بصيغ ومفردات عديدة اخرى تعتمد للتعبير عن المسألة الحضارية لان القرآن ما جاء الا لكي يخاطب العرب بلغتهم (الراهنة) ومن خلال مفرداتهم الشائعة .

نستطيع أن نتلمس البدايات الاولى للمسألة بالرجوع الى حادثة (خلق آدم) باعتبارها حجر الزاوية في الوجود البشري .. ولكن اليس من حقنا أن نتساءل انه ما دامت الحضارة فعلاً وابداعاً ومجابهة لكتلة العالم والطبيعة ، واستجابة

للتحديات الدائمة وتهيئة واعماراً وتمهيداً وتطوراً ، وما دامت الواقعة التاريخية عموما تجيء بأمر الله الذي لا راد لامره وبارادته التي تعلو على الارادات ، فهل لنا أن نرجع بالمسألة الى ما وراء خلق ادم ، الى كل العمليات التي اريد بها تهيئة العالم لاستقبال المخلوق الجديد واحاطة نشاطاته المختلفة بالضمانات؟ بل الى ما قبل ذلك، الى اليوم الذي قال فيه الله للسماوات والارض (اتيا طوعا أوكرها ، قالتا : اتينا طائعين) ؟ ان آدم عليه السلام ، وذريته من بعده ، ما داموا حلقة من حلقات الابداع الالهي في الكون فان لنا ان نصل معطياته الحضارية بما هو اشمل وارحب ، وبما يعطيها مساحتها الحقيقية في حركة الكون دونما افراط أو تفريط ؟

ان التاريخ الحضاري — في القرآن اذن — يمتد الى ما قبل آدم .. انه كل فعل إلهي تمتزج فيه ارادة الله وروحه وكلمته بالمادة ، فتصوغها كتلاكونية أو نظما طبيعية او خلائق تحمل بصمات الحياة الاولى من نبات او حيوان .. أو تخلقها بشرا سويا : ويجيء الانسان — من ثم — خليفة لله ، كما يؤكد القرآن في أكثر من موضع ، لاعمار الارض التي (انزل) اليها وهو يحمل العدة الكافية لهذا العمل ، ويمتلك الشروط الاساسية لمجابهة العالم وتحويله وتغييره وتطويره . سواء بما ركب الله في ذاته من عقل وروح وارادة وتكييف جسدي فذ ، ليس المشي على قدمين ، وتحرر اليدين ، ومطاوعة الاصابع بأقلها خطورة .. أو بما هيأه الله في الارض وما حولها من امكانيات التعامل الحيوي معها والاستمرار في اطرافها ، والتحاور الخلاق بينها وبين الانسان الذي جعل بهذا التمهيد المزدوج لاداء مهمته الحضارية : سيدا للعالمين ، وفضل على كثير من خلق الله تفضيلا ؟ وما دامت عملية بناء الكون وتهيئة الارضية الصالحة للحياة على الارض ، قد سبقت خلق ادم بأزمان لا يعلمها الا الله ، وما دامت المقاييس الادمية تجيء دائما نسبية قاصرة محدودة ازاء خلق الله ، فليس لنا ان نطمح للاحاطة الكاملة والتفسير الشامل لقضية (التكوين) هذه ، وليس لنا — كذلك — ان نفترض نظريات لا جدوى من ورائها .. ان هذا فوق طاقتنا ، وان اية محاولة في سبيله

لا تعدو أن تكون عبثا (ميتا فيزيقيا) يذكرنا بما كان يفعل جل الفلاســفة اليونانيين ، والاسلاميين المتأثرين بهم ، والذين افنوا اعمارهم في هذه السبيل . وهذا لا يعني أبداً التشكيك بالمحاولات العلمية ، التجريبية لدراسة الجانب الطبيعي القائم (فعلا) من الكون والسعي للكشف عن قوانين بنيانه المحكم . لان هذا هو الموقف الذي يدعو له القرآن في عشرات الآيات .. انما القصد هو الجانب الفلسفي التصوري لبدايات الخلق والبحث عن (العلة) و (المعلول) و (متناهي الاول) الى اخره .. وكل ما يبينه القرآن عن امتداد عملية الخلق هذه في عصورنا التاريخية الراهنة والمقبلة ، أن الكون ماضٍ في حركته الداينامية نحو الاتساع الدائم بارادة الله (والسماء بنيناها بايد وانا لموسعون) (١) ، وان هذه الهدفية على المستوى الكوني الكلي . وهذه الحركة صوب الاتساع ، لا بد وأن تنعكس ، في التصور الاسلامي ، على حركة التاريخ البشري نفسه ، ومصير الانسان في العالم ، قبل أن يجيء اليوم الذي اعلن عنه القرآن مرارا حيث تطوى السماوات كطي السجل للكتاب ، وتكف الحياة والتاريخ البشري عن (الاستمرار) تمهيدا ليوم الحساب ، وتبدأ صفحة جديدة في تاريخ الخلق الالهي الدائم (كما بدأنا أول خلق نعيده ، وعدا علينا ..) (٢) .

إننا حيثما تنقلنا في أرجاء القرآن الفسيحة لمطالعة الآيات والمقاطع الخاصة بخلق الكون وتهيئة الظروف الصالحة للحياة على الارض ، وتمعنا فيها ، وجدناها ترتبط ارتباطا عضويا اصيلا بالدور المنتظر الذي بعث الانسان لكي يلعبه ، وبالعمل والجدوى والنظام والاعمار والغاية التي بعث من اجلها ، وهي كلها قواعد أساسية لاي نشاط حضاري فعال هادف منظم متطور على الارض :

(وهو الذي خلق السماوات والارض في ستة أيام ، وكان عرشه على الماء ، ليبلوكم ايكم احسن عملا) (٣) .

(ان ربكم الله الذي خلق السماوات والارض في ستة أيام ثم استوى على

(١) الذاريات ٤٧ (٢) الأنبياء ١٠٤ . (٣) هود ٧ .

العرش ، يدبر الامر ، ما من شفيع الا من بعد اذنه . ذلكم الله ربكم فاعبدوه افلا تذكرون ؟ اليه مرجعكم جميعا ، وعد الله حقا ، انه يبدأ الخلق ثم يعيده ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط والذين كفروا لهم شراب من حميم وعذاب اليم بما كانوا يكفرون . هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا ، وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ، وما خلق الله ذلك الا بالحق ، يفصل الايات لقوم يعلمون) (٤) .

(وجعلنا الليل والنهار آيتين ، فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم ، ولتعلموا عدد السنين والحساب وكل شيء فصلناه تفصيلا) (٥) .

(هو الذي خلق لكم ما في الارض جميعا منه ، ثم استوى الى السماء فسواهن سبع سماوات وهو بكل شيء عليم) (٦) .

(الله الذي رفع السماوات بغير عمد ترونها ، ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجري لاجل مسمى ...) (٧) .

(وما خلقنا السماء والارض وما بينهما لاعبين . لو أردنا ان نتخذ لهوا لاتخذناه من لدنا ان كنا فاعلين . بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق ولكم الويل مما تصفون . وله ما في السماوات والارض ومن عنده ، لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون . يسبحون الليل والنهار لا يفترون) (٨) .

(الله الذي خلق السماوات والارض وما بينهما في ستة أيام ، ثم استوى على العرش ، ما لكم من دونه من ولي ولا شفيع افلا تتذكرون ؟ يدبر الامر من السماء الى الارض ثم يعرج اليه في يوم كان مقداره الف سنة مما تعدون . ذلك

(٤) يونس ٣ — ٥ .
(٥) الاسراء ١٢ .
(٦) البقرة ٢٩ .
(٧) الرعد ٢ .
(٨) الأنبياء ١٦ — ٢٠

عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم . الذي احسن كل شيء خلقة وبدأ خلق الانسان من طين) [٩] .

(هو الذي خلق السماوات والارض في ستة أيام ثم استوى على العرش يعلم ما يلج في الارض وما يخرج منها ، وما ينزل من السماء وما يعرج فيها ، وهو معكم اينما كنتم ، والله بما تعملون بصير) [١٠] .

(قل ائنكم لتكفرون بالذي خلق الارض في يومين وتجعلون له اندادا ذلك رب العالمين . وجعل فيها رواسي من فوقها ، وبارك فيها وقدر فيها اقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين . ثم استوى الى السماء وهي دخان فقال لها وللارض ائتيا طوعا أو كرها قالتا : اتينا طائعين . فقضاهن سبع سماوات في يومين واوحى في كل سماء امرها . وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا ، ذلك تقدير العزيز العليم) [١١] .

(والعصر ان الانسان لفي خسر ، الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر) [١٢] .

فنحن من خلال هذه الآيات وغيرها كثير — ازاء تجربة اختبار وابتلاء ، تتطلب منا افرادا وجماعات ، عملا وابداعا .. ولكن اي عمل وابداع يتوجبان على الانسان في الفرصة التي ستنتهي الى (اجلها المسمى) ؟ ... انه ليس ارتجالا كيفيا ، ولا مواقف جزئية مفككة ، كما انه ليس فوضى لا يحدها نظام ولا يسلكها هدف .. انما العمل والابداع اللذين ينبثقان عن تخطيط مرسوم ، وينطلقان من مواقف كلية شاملة ، ويصدران عن نظام مبرمج يهدف الى غاية داينامية لا حدود لها ابدا تلك هي (عبادة الله) ... ان (عبادة الله) وحده ، بالمفهوم الابداعي الشامل الذي سنتحدث عنه عما قليل ، هي الهدف الذي

(٩) السجدة ٤ — ٧ .
(١٠) الحديد ٤ .
(١١) فصلت ٩ — ١١ . (١٢) العصر ١ — ٣ .

يتوجب على الانسان ، فردا وجماعة ، ان يصعد اليه كافة اوجه نشاطه الحضارية .. وبينما ترسم المذاهب الوضعية — هي الاخرى — اهدافا لحركتها الحضارية ، تتميز حينا بالغموض والمثالية كما هو الحال عند هيجل ، وتتميز حينا آخر بالتحديدات الصارمة والمادية كما هو الحال عند ماركس وانجلز ، وتتميز حينا ثالثا بصبغة مسيحية باهتة ، غير مبررة عقليا ، كما هو الحال عند توينبي .. الامر الذي قاد الاول — وهو يتحدث عن تجلي المتوحد من خلال (الدولة) — ان يعطينا كافة المبررات الفلسفية لممارسة سياستها العدوانية التي قد تقود ولا ريب الى الدمار الحضاري والظلم البشري ، وقاد الثاني الى اعلان دكتاتورية الطبقة العاملة كهدف للحركة التاريخية ،وتبرير أي أسلوب تعتمده لتحقيق هدفها ما دامت لا تعدو أن تكون منفذة امينة لمنطق التبدل في وسائل الانتاج الامر الذي قادها — ويقودها — الى تنفيذ المجازر الجماعية تجاه كافة القوى المعارضة والتي لا تنسجم وبداهات التحضر البشري الحر ... وقاد الثالث وهو بصدد حقن الحضارة الغربية المعاصرة بالامل ، الى عملية ترقيع غير منطقية بين القيم الروحية المسيحية وبين بعض معطيات الديانات العالمية الكبرى كاليهودية والبوذية والاسلام فيما سماه (الديانة الرباعية) .. الامر الذي يتناقض اساسا مع طبيعة التجربة (الدينية) القائمة على التلقي عن المصدر الواحد والتوجه المتوحد صوب هذا المصدر دون سواه ، وفق عقيدة تتميز بالوحدة والترابط . ثم ماذا بعد هذه الاهداف التي تؤكد المذاهب الوضعية انها آتية لا ريب فيها ؟ وهي في تأكيدها هذا تقع في التناقض الصريح مع (الداينامية) التي أقرتها كأساس لحركة التاريخ البشري ونمو الحضارات ؟ ماذا بعد دكتاتورية الطبقة العاملة وتجلي المتوحد ؟ ان التجربة البشرية اوسع دائما ، واغنى واشمل ، من ان تحصرها حدود طبقية تقوم على فرض التشابه الجماعي بالقسر ، ومجابهة كل تفرد أو تميز انساني ولا يعدو مصيرها في نهاية الامر أن يكون انشاء مجتمعات لا تزيد في نشاطاتها ومعطياتها عما نشهده في عوالم النحل والنمل من نظم هندسية صارمة دقيقة ، وعمل دائب ، وانتاج متزايد .. أو ان تحصر هذه التجربة البشرية

الواسعة الغنية المعقدة المتنوعة ، الشاملة ، دولة عالمية يتجلى فيها المتوحد الهيجلي ، ويسوسها عرق ممتاز ، مبررة سلفا كل ممارساته العدوانية ونزعاته الشوفينية .

بينما ترسم المذاهب الوضعية اهدافا كهذه تتميز بالغموض او الطغيان أو التناقض او الانغلاق ، نجد القرآن الكريم يعلن هدفه الواضح المتوحد المفتوح الذي يستقطب حوله كافة الفاعليات والمعطيات : عبادة الله ، والتلقي عنه ، والتوجه اليه .. ويطلب من القوى المؤمنة ان تتحرك على مدار التاريخ ، وفق كل الاساليب الانسانية الشريفة الممكنة ، لتجميع البشرية حول هذا الهدف الكبير (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنه ، ويكون الدين لله) (١٣) ... ولكي تتوحد في ممارساتها ومعطياتها وعلائقها جميعا مع النواميس الكونية الشاملة والنظام الالهي الملزم في مداه البعيد ، والذي ما منح هذا القدر من الحرية للانسان الا لكي يعتمدها باختياره ، في التساوق مع هذا النظام والاندماج في المجرى العام لخلائق الله جميعا ، تمييزا له ، بهذه الحرية التي تنبثق عن دوره كخليفة ، ومكانته كسيد للعالمين عن سائر خلق الله .. وفرق شاسع على كل المستويات الذاتية والاجتماعية والحضارية في النتائج المتمخضة عن نشاط يبذله الانسان وهو متساوق مع نواميس الكون ، متناغم مع مسيره ومصيره او وهو منشق على هذه النواميس متنافر معها بدءاً ومصيرا ..

والواقع أن الانسان فردا وجماعة ينسى في معظم الاحيان ان دائرة حريته محدودة فيما يقدمه من أفعال ، وما يتخذه من مواقف ويلتزمه من أهداف ، وانه فيما وراء ذلك ، محكوم بسنن ونواميس الهية تفوق طاقاته وقدراته جميعا ، وبدونها لا يمضي حق وعدل ، ولا يستقيم نظام كوني ولا وجود بشري ، ولا تتحقق حكمة الله سبحانه من تسيير الكون والخلائق جميعا وفق طرائق محددة منضبطه تؤدي بهم جميعا الى الاهداف التي رسمها في ابعادها المتكاملة ومن زواياها المختلفة (ولله يسجد من في السماوات والارض طوعا وكرها ..) (١٤) .

---

(١٣) البقرة ١٩٣

(١٤) الرعد ١٥ .

(وما خلقنا السماوات والارض وما بينهما الا بالحق) (١٥) .

(ولله يسجد ما في السماوات وما في الارض من دابة ، والملائكة ، وهم لا يستكبرون) (١٦) .

(وله ما في السماوات والارض ، وله الدين واصبا ، افغير الله تتقون ؟)(١٧)

(تسبح له السماوات السبع والارض ، ومن فيهن ، وان من شيء الا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم انه كان حليما غفورا) (١٨) .

(الم تر ان الله يسجد له من في السماوات ومن في الارض ، والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب ، وكثير من الناس وكثير حق عليه العذاب ...) (١٩)

(وما خلقنا السماء والارض وما بينهما باطلا ، ذلك ظن الذين كفروا ، فويل للذين كفروا من النار) (٢٠) .

(او لم يتفكروا في انفسهم ، ما خلق الله السماوات والارض وما بينهما الا بالحق واجل مسمى وان كثيرا من الناس بلقاء ربهم لكافرون) (٢١) .

(الله خالق كل شيء ، وهو على كل شيء وكيل ، له مقاليد السماوات والارض والذين كفروا بآيات الله اولئك هم الخاسرون) (٢٢) .

(وما خلقنا السماوات والارض وما بينهما لاعبين . وما خلقناهما إلا بالحق ولكن اكثرهم لا يعلمون (٢٣) .

---

(١٥) الحجر ٨٥ وانظر النحل ٣ ، العنكبوت ٤٤ ، الزمر ٥ .

(١٦) النحل ٤٩ .

(١٧) النحل ٥٢ .

(١٨) الاسراء ٤٤ .

(١٩) الحج ١٨ ، وانظر النور ٤١ – ٤٢ .

(٢٠) ص ٢٧ .

(٢١) الروم ٨ وانظر الأحقاف ٣ .

(٢٢) الزمر ٦٢ – ٦٣ .

(٢٣) الدخان ٣٨ – ٣٩ .

(وخلق السماوات والارض بالحق ، ولتجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون) (٢٤) .

(وله من في السماوات والارض كل له قانتون) (٢٥) .

(بل جاءهم بالحق ، وأكثرهم للحق كارهون . ولو اتبع الحق اهواءهم لفسدت السماوات والارض ومن فيهن ، بل اتيناهم بذكرهم فهم عن ذكرهم معرضون) (٢٦) .

ولو تمعنا قليلا في موقفنا عبر الكون لرأينا اننا مجبرون — بالحق والعدل والنواميس ، وباعتبارنا جزء من خليقة الله ، شئنا أم ابينا — في مساحات واسعة حاسمة من وجودنا ، اننا مجبرون على ان نولد ومجبرون على أن نموت ... اننا مجبرون على ان نبعث وان نحاسب على أعمالنا ، وان نساق الى جنة او الى نار وفق هذا الحساب العادل المحفز .. اننا مجبرون على ان ننتمي الى هذا الاقليم او ذاك ، والى هذه القبيلة او الامة او تلك ، والى هذا الجنس او ذاك ، والى هذا اللون او ذاك .. مجبرون كذلك على ان نخضع لمتطلبات حياتنا البيولوجية والحسية ، وعلى ان نتقلب وفق تجاربنا النفسية بين الحزن والفرح والغم والانشراح والخوف والطمأنينة ، والتمزق والتوحد .. وفوق هذا وذلك فاننا مجبرون على حمل ملامحنا الشخصية المتفردة ، وسماتنا الخاصة ، وبصمات أصابعنا ، وبدون هذه الالتزامات الحتمية تتبدد الحياة وتفقد وحدتها وتماسكها ومعناها ..... بدون هذا (الجبر) تضيع البشرية ، ويحدث التناقض في النواميس ، وتختفي قيم الحق والعدل الازلية ...

والمساحة المتبقية لممارسة حريتنا انما منحت لنا لتمييزنا عن سائر خلق الله وتفضيلنا على العالمين .. ان هذه المساحة تمتد هي الاخرى الى امداء واسعة : الموقف الذي نتخذه في العالم .. الاعمال والمعطيات التي نقدمها في الحياة .. الاهداف التي نتوجه اليها في ممارستنا ونشاطاتنا جميعا .. هذه الحرية التي تقف

(٢٤) الجاثية ٢٢ .   (٢٥) الروم ٢٦ .   (٢٦) المؤمنون ٧١ .

بالانسان والامم والشعوب والحضارات على مفترق طريقين .. فاما ان تكون مواقفنا وأعمالنا واهدافنا منسجمة مع نواميس الكون وسنن الحياة ، متوافقة معها ، مما يترتب عليها انجاز حضاري اغنى وتوحد بشرى اشمل ، وسعادة نفسية أكثر عمقا ، ومصير في الارض والسماء أشد توافقا مع مهمة الوجود البشري في الارض .. وهذا ما سعت الاديان لتحقيقه في العالم وما يسعى الاسلام وسيظل ، من اجل تحويل البشرية كلها اليه (كي لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله) . . .

واما ان تجيء هذه المواقف والاعمال والاهداف منشقة ، بالقدر الذي منحت فيه اختيارها بطبيعة الحال ، عن نواميس الكون وسنن الحياة ، مرتطمة بها الامر الذي يترتب عليه انجاز حضاري متفكك ، وتمزق بشري شامل ، وشقاء نفسي عميق ، ومصير سيّء في الدنيا والاخرى ، يندعن طبيعة الدور الذي بعث الانسان الى العالم لادائه ، ويجيء مكافئا لعصيانه وتمرده ورفضه اداء المهمة ، وهذا ما سعت المذاهب الوضعية ، وتسعى لتحقيقه في العالم وتحويل البشرية كلها اليه .

ومن ثم فان القرآن في تفسيره لادوار الامم والشعوب والحضارات ، انما يتخذ ، هذا المقياس الكوني المصيري الحاسم في تحديد مدى توافق التجربة البشرية مع النواميس او ارتطامها بها ، ويدعونا الى مواقع الانسجام والتوافق ، نافخا فينا روح العمل والابداع مستقطبا ممارساتنا ومعطياتنا في الهدف الواحد الشامل الذي أعلنه الله سبحانه (وما خلقت الجن والانس الاليعبدون) .. ولا بد أن نقف هنا لتلمس الملامح الاساسية الشاملة لمفهوم التعبد في الاسلام .

ان القرآن يؤكد ، هنا وفي اماكن اخرى ، ان الله سبحانه ما خلق (معشر الجن والانس) الا (ليعبدوه) ، وليس مفهوم العبادة هنا ، مساحة ضيقة لا تتجاوز دائرة (الشعائرية) و (الاتصال الروحي) بالله .. انه تجربة حياة كاملة يتوازن فيها الاخذ والعطاء ، وتغدو اشبه بالبرنامج الشامل الذي ينظم فاعليات

الجماعة البشرية في الأرض ، ويمنحها معنى ، ويسير بها الى هدف واضح مرسوم .. انه يمنح التجربة الحضارية طابعها الخاص ، ويعطيها الدافع والمبرر ، وينفخ فيها روح الابداع والابتكار والتطور الدائم الفعال .. كما انه يتجاوز بها السفوح الدنيا للنشاط البشري ، الى القيم التي تليق بمكانة البشرية في ساحة العالم.. وبهذا تسقط ، ابتداء ، كافة السلبيات التي يمكن ان تعلق باي نشاط حضاري لا يعتمد برنامجا شاملا ، ولا يسعى الى هدف واضح ، ولا يلتزم اخلاقية الانسان في حواره مع خالقه .

وتبرز من بين هذه السلبيات مسألتا (العبث) و (اللاجدوى) اللتان تسيطران على مساحات واسعة من انشطتنا الحضارية المعاصرة على مستوى الواقع والفكر [٢٧] ، في وقت تنتفيان فيه اساسا ، من خلال الموقف القرآني ، الذي يبين لنا مرارا ان خلق السماوات والارض ما جاء عبثا ، وان سعي الانسان في العالم ليس أمرا محكوما باللاجدوى :

(افحسبتم انما خلقناكم عبثا وانكم الينا لا ترجعون ؟) [٢٨] .

(ايحسب الانسان ان يترك سدى ؟) [٢٩] .

(وان ليس للانسان الا ما سعى . وان سعيه سوف يرى . ثم يجزاه الجزاء الاوفى) [٣٠] .

(وما خلقنا السماء والارض وما بينهما لاعبين . لو اردنا ان نتخذ لهوا لاتخذناه من لدنا ان كنا فاعلين ، بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق ولكم الويل مما تصفون) [٣١] .

ويعلن ان وراء هذا النشاط والجهد البشري غايات اساسية يتمحور حولها

---

(٢٧) أنظر كتاب (فوضى العالم في المسرح الغربي المعاصر) للمؤلف (قيد الإعداد) .
(٢٨) المؤمنون ١١٥ .
(٢٩) القيامة ٣٦ .
(٣٠) النجم ٣٩ – ٤١ .
(٣١) الأنبياء ١٦ – ١٨ .

وتنشد جميعا الى غاية الغايات ، والمركز الذي تتجه اليه الخلائق جميعا في نشاطاتها المختلفة وتحقق به وجودها وتجد مصيرها .. تلك هي عبادة الله والتلقي عنه والتوجه اليه .

ان ثمة ظاهرة اساسية يتميز بها النشاط التعبدي في الاسلام ، ذلك انه لا يقتصر على فترات مقتطعة من الزمن ، أو اماكن محددة من العالم ، وانما ينساح لكي يشمل كل الاماكن والازمان . ليس هذا فحسب بل انه في جوهره تذكر للوجود الالهي في الكون وادراك لابعاده الشاملة : قدرة وارادة واحاطة ورقابة وعلما .. واتصال دائم بالله سبحانه في كل ما يصدر عن الانسان من أفعال ظاهرة مرئية ، وإرادات لم تتشكل في افعالها بعد ، او نيات وخواطر وتأملات هواجس تدور في اعماق النفس .. وتقدير لعظمة الله الذي خلق الكون والحياة والانسان على اروع وادق نظام .. واعتراف بالجميل للخلاق المبدع الذي هيأ للبشرية ظروفا تمكنها في كل وقت من تحقيق السعادة الكاملة في الارض والسماء.

ان التعبد — بهذا المعنى — يمتد الى كل مساحات الحياة البشرية الظاهرة والخفية الخاصة والعامة ، الفردية والجماعية ، المادية والروحية ، تماما كما تمتد الدماء وتسري في اوصال الجسد البشري وخلاياه .

« وتنبثق عن هذه الحقيقة ضرورة التفريق بين هذه القاعدة التعبدية الشاملة، وبين بعض صور العبادة التي حددها الاسلام على شكل شعائر وطقوس ذات اشكال ومضامين معينة كالصلاة والصيام والحج والزكاة .. ففي الحالة الاولى يبدو أن كل ممارسة ، باطنية كانت أم ظاهرية ، يمكن أن تكون تعبدا اذا كانت وراءها نية مؤمنة تسعى الى ان تجعل من كل فاعلية في الحياة وسيلة يتقرب بها الانسان من الله ، ويتعبد اليه ، ويتذكر وجوده الشامل القادر المريد .. هذه القاعدة الشاملة التي تضم ، فيما تضم ، الشعائر الاسلامية الخمس نفسها مضافا اليها كل الفاعليات الاخرى ، ابتداء من اشدها مادية وكثافة كالتجربة الجنسية وتجارب الطعام والشراب ، وانتهاء بسهر الليالي الطوال تقربا الى الله وتأملا في ملكوته .

والحق ان من الصعوبة بمكان الفصل بين الشعائر الاسلامية وبين القاعدة التعبدية نظرا للارتباط الدقيق بينهما . فضلا عن ان هذه الشعائر نفسها لا تنصب على الجانب الروحي . التأملي ، فحسب بل تنساح الى كل جوانب النشاط الانساني الحركي : جسدا وعاطفة وروحا وعقلا وفسلجة ووجدانا . الا انه لا بد من هذا التفريق لغرض ايضاح هذه الحقيقة الاساسية في بنية الاسلام الذي يرسم لاتباعه برنامجا عمليا للصعود والترقي ينتهي بابعد آفاقه في تلك اللحظات التي يتوحد الانسان فيها مع ذاته وعقيدته ، ويغدو تعبيرا حيا عنها ، بحيث انه لا يمارس عملا الا وهو يستشعر خلال تلك الممارسة الوجود الالهي المحيط المريد ، وحينذاك يكون المسلم قد حقق اقصى درجات إسلاميتهوهي (الاحسان) ويكون (الاسلام) قد أدى دوره الكامل .

ولا ريب أن سؤالا يتبادر الى الاذهان في هذا المجال ، وهو أنه اذا كانت الارضية التي تقوم عليها العبادة الاسلامية تمتد وتشمل هذه المساحة الواسعة من حياة الانسان فلماذا اضاف الاسلام اليها شعائر يومية وموسمية محددة تتمثل بصيام أو حج أو زكاة .. واوجب على المسلمين الالتزام بها ، واعتبر التخلي عنها حدا بين الكفر والايمان ؟ والجواب يجيء سريعا في أن الاسلام جاء لكي (يضبط) و (يحدد) و (ينظم) انطلاقا من ايجابيته وواقعيته في تحديد الاشياء والعلاقات والقيم ، ذلك ان ترك الانسان حرا في ممارسة تعبده لا يضمن اساسا قيام هذا التعبد لدى بعض المنتمين واستمراره لدى بعضهم الاخر ، فلا بد اذن من وضع حد ادنى (ملزم) يكون بمثابة قاعدة يمكن ان يبنى فوقها المزيد من النشاطات التعبدية التي تصل بالمسلم (اختيارا) ، وحسب المقدرة ، الى درجة الاحسان والى تحويل الحياة كلها الى ساحة للتعبد والتذكر » (٣٢) .

قد يسأل سائل : « اذا كان هدف الانسان في الكون هو ان يعبد الله كما

(٣٢) عن الملامح الأساسية للعبادة الاسلامية أنظر بالتفصيل بحثا للمؤلف في مجلة الوعي الاسلامي السنة الثامنة .

يؤكد القرآن الكريم ــ افلا يعني هذا ان الانسان مغبون إذ قدر عليه ان يقف في موضع يطلب منه فيه العطاء فحسب ، دونما أي قدر من (الاخذ) ؟ »والجواب (كلا) لان العبادة في الاسلام ــ كما مرّ بنا ــ هي التجربة الحياتية الكبرى القائمة على توازن فذ عجيب بين الاخذ والعطاء ، والانسان يبلغ قمة انسانيته عندما يصل تلك النقطة التي يحقق فيها ذلك التوازن ، حيث نجده يبلغ اقصى درجات الانسجام ، والتوحد الباطني ، والحيوية الحسية ، والنشاط الروحي ، والتفتح العقلي ، والحركة الجسدية ، لان الله سبحانه ، وهو أدرى بخلقه ، جعل عبادته التي هي هدف الخلقية جمعاء ، مفتاح هذا المصير الذي يطمع اليه كل الانسان ، واي انسان في الارض لا يطمح لان يكون متوحدا منسجما ، حيويا ، نشيطا وحركيا ؟

« ان العبادة في الاسلام لا تعني ــ كما هو الحال في كثير من الاديان والعقائد ــ حوارا جزئيا مع الله سبحانه ، في ساعات معينة من الليل او النهار ، حوارا يعبر عن نفسه باداء حركات محددة ، واستعادة تعابير وصلوات مكتوبة سلفا ، وهدوءً جسديا موقوتا بزمن هذا الحوار . وما ان تتم هذه العبادة الجزئية ، او الصلاة التي لا تعدو أن تكون (صلة وقتية) ، تسودها الآلية والكسل الروحي في معظم الاحيان ، حتى ينقلب الانسان الى تيار الحياة الهادر الصاخب لكي (يحرك) مكوناته التي جمدتها لحظات الصلاة ، ولكي ينطلق متعاملا مع الاخرين بشخصيته الثانية ، الشخصية الدنيوية العملية الحركية . اما في الاسلام فان كل فاعليات الانسان تبدو عبادة لله ، ما دام ذلك الانسان قد وضع الله نصب عينيه . وكلما كان الله سبحانه اكثر تجليا للانسان خلال احدى ممارساته ، كلما جاءت تلك (الممارسة) أكثر انسجاما مع مفهوم العبادة الشامل العميق .. وهذا التجلي ، أو (الاحسان) بلغة الرسول (ص) ، لا يتحقق الا بالصبر والمران والدأب لكي ما يلبث أن تجيء ثماره حلوة كالرحيق المختوم .. هنالك حيث تتوازن تجربتا الأخذ والعطاء » (٣٣) .

(٣٣) انظر : الهامش السابق .

إن موقف القرآن الكريم من المسألة الحضارية في جانبها الانساني يبدأ بخلق آدم ، وفي الظروف والدلالات والرموز والارهاصات التي رافقته وأعقبته (واذ قال ربك للملائكة اني جاعل في الأرض خليفة . قالوا : أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ؟ قال : اني أعلم ما لا تعلمون . وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال : انبئوني بأسماء هؤلاء ان كنتم صادقين ؟ قالوا : سبحانك ، لا علم لنا الا ما علمتنا انك أنت العليم الحكيم . قال : يا آدم انبئهم بأسمائهم ، فلما أنبأهم بأسمائهم قال : ألم أقل لكم اني أعلم غيب السماوات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون ؛ واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم ، فسجدوا الا ابليس أبى واستكبر وكان من الكافرين ، وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة ، وكلا منها رغدا حيث شئتما ولاتقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين . فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه ، وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ، ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين . فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه انه هو التواب الرحيم . قلنا اهبطوا منها جميعا ، فاما يأتيكم مني هدىً ، فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون . والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) [1] .

تلك هي الخطوط العريضة ، الواضحة ، لمسألة الوجود البشري في العالم .. الصورة المتماسكة البيّنة التي تساقطت عندها قرنا بعد قرن عشرات المحاولات التفسيرية التي تطرفت باتجاه الخيال اليهودي (الاسرائيليات) أو التبرير العقلي المتوتّر .. وبقيت الصورة القرآنية الخالدة على وضوحها وبيانها .. اننا — من خلال هذا العرض المركز — نلتقي بقواعد أساسية ومبادىء كلية ، تتجاوز الجزئيات والتفاصيل وتلقي ضوءها الشامل على كل ما يهمنا في المسألةالحضارية

(١) البقرة ٣٠ – ٣٩ .

من خلال الموقف القرآني : خلافة الانسان عن الله في الأرض ومنحه المقدرة على التعلم والفعل والاستيعاب ، وتكريمه الأقصى حتى بسجود الملائكة له .... مجابهته بابليس وبدء (الصراع) بين الطرفين و (الهبوط) الزمني (الموقوت) إلى الأرض كأول تجربة من تجارب هذا الصراع .. (تعليق) الدور البشري في الأرض على تلقّي (الهدى) من الله وحده ، وتحديد المصير الذي سيؤول اليه موقف الانسان (الحرّ) ازاء هذا الهدى في الارض والسماء .

تلك هي المبادىء الكبرى الأساسية التي يقدمها لنا هذا المقطع القرآني الخطير والتي تعيننا على تفهم الموقف الاسلامي من المسألةالحضارية بأبعادهاالشاملة وهي مبادىء تملك من الوضوح والصلابة والاستمرارية والتماسك ما تبدو ازاءه — غامضة مفككة مضطربة — كل محاولات التفسير الوضعي لنشأة التاريخ البشري وبدء الخليقة وأصول الحضارات . لأنها تكل أمر هذه اللحظة الفاصلة للصدفة العمياء ، أو تطور وسائل الانتاج المادية في الخارج ، أو محاولة العقل الكلي ، الغامض غير المحدّد ، لأن يعبّر عن نفسه من خلال العالم ويقطع الطريق الطويل من أجل التجلّي !! أو رغبة الطبيعة في تنشئة خلائقها وترقيتهم عن طريق منحهم — غير المبرّر — الحياة لا تمتلكها هي نفسها ، الأمر الذي يشكل تناقضا فاضحا ازاء تحديد مصدر هذه الحياة .. ولنبدأ من ثم بتحليل هذه المبادىء القرآنية من خلال آيات ومقاطع أخرى نلتقي بها في القرآن الكريم نفسه :

لقد أراد الله للانسان أن يكون خليفته في الأرض ، فمنحه القدرة العقلية على التعلم والمقدرة الجسدية على التنفيذ والعمل والابداع ، والارادة (الحرة) لاختيار أسلوب الحياة التي يقوده اليها فكره ودوافعه النفسية والجسدية .. ولكي لا يحسّ الانسان (بالدونية) ولا تدور في خاطره أية فكرة عن (سلبية) دوره في العالم ، رفعت مكانته الى أعلى مصاف وطُلب من الملائكة أن يسجدوا له .. وتلك هي أسس تقود ولا ريب الى تصوّر دور الانسان في العالم كقوة فاعلة ، مفكرة ، مريدة ، منفذة ، مستقلة مفضّلة .. الأمور التي لا بد منها لأي

ابداع حضاري على الأرض . فاذا ما أضفنا الى هذا ما سبق وأن أشرنا اليه من أن العالم قد مُهد تمهيدا للدور البشري على أرضيته . وما سنشير اليه فيما بعد من أبعاد (الصراع) التي لا بدّ منها (للحركة التاريخية) ومن خطورة التعاليم التي كانت تتنزل حينا بعد حين لكي (تضبط) و (تنظم) حركة الانسان في الأرض ، أدركنا كم هي عميقة شاملة متكاملة ، الأسس التي منحت للبشرية لكي تعتمدها في ممارسة خلافتها العمرانية ، أو الحضارية في العالم .

إن مسألة (الاستخلاف) تتكرر أكثر من مرة في القرآن الكريم :

(هو الذي جعلكم خلائف في الأرض ، فمن كفر فعليه كفره ، ولا يزيد الكافرين كفرهم عند ربهم الا مقتا ، ولا يزيد الكافرين كفرهم الا خسارا) [٢]

(وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ، ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم ان ربك سريع العقاب وانه لغفور رحيم) [٣] .

(واذكروا اذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم في الخلق بسطة فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون) [٤] .

(قال : عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون) [٥]

(ثم جعلناكم خلائف في الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون) [٦] .

(فكذبوه فنجيناه ومن معه في الفلك ، وجعلناهم خلائف وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا فانظر كيف كان عاقبة المنذرين) [٧] .

---

(٢) فاطر ٣٩ .
(٣) الأنعام ١٦٥ .
(٤) الأعراف ٦٩ .
(٥) الأعراف ١٢٩ .
(٦) يونس ١٤ .
(٧) يونس ٧٣ .

(ويجعلكم خلفاء الأرض ، أأله مع الله ؟ قليلا ما تذكرون) [٨] .

(وعد الله الذين آمنوا منكم ، وعملوا الصالحات ، ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدونني لا يشركون بي شيئاً ، ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون) [٩] .

ومسألة الاستخلاف تبدو خلال هذه الآيات مرتبطة بالخيط الطويل العادل من طرفيه : العمل والابداع ومجانبة الإفساد في الأرض ، وتلقّي القيم والتعاليم والشرائع عن الله والالتزام الكامل بها خلال ممارسة الجهد البشري في العالم .. والعلاقة بين هذين الطرفين علاقة أساسية متبادلة ، بحيث أن افتقاد أي منهما سيؤول الى الخراب والضياع في الدنيا والآخرة ، ويقود الى عملية استبدال للجماعة البشرية بغيرها ممن تقدر على الإمساك بالخيط من طرفيه : العمل والجهد والابداع ، والتلقي الدائم عن الله لضبط وتوجيه هذا العمل والجهد والابداع في مسالكه الصحية التي تجعل الانسان يقف دائما بمواجهة خالقه كخليفة مفوضين عنه لإعمار العالم : (قال : يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره ، هو الذي أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها) [١٠] .

ويبلغ من تأكيد القرآن على العمل والجهد البشري لإعمار العالم على عين الله وتوجيهه ، أن ترد اللفظة بتصريفاتها المختلفة فيما يزيد على الثلاثمائة والخمسين موضعا ، وهي كلها تشير — سلبا وإيجابا — إلى أن المحور الأساسي لوجود الانسان — فردا وجماعة — على الأرض هو (العمل) الذي يتخذ مقياسا عادلاً لتحديد المصير في الدنيا والآخرة ، وهو (موقف) ينسجم تماما مع فكرتيْ (الاستخلاف) و (الاستعمار) الأرضي .. إن القرآن الكريم يحدثنا أن مسألة خلق الموت والحياة أساساً انما جاءت لابتلاء بني آدم ، أيهم أحسن عملا ؟ (الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور) [١١] .

---

(٨) النمل ٦٢ .
(٩) النور ٥٥ .
(١٠) هود ٦١ .
(١١) الملك ٢ .

كما يحدثنا في سورة العصر أن موقف الانسان في العالم سيؤول الى الخسران بمجرد افتقار شرطيه الأساسيين (الايمان ، والعمل الصالح) .. ويصدر أمره الحاسم الى الأمة المسلمة أن تلتزم دورها الايجابي الفعّال في قلب العالم (ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم) [١٢] . وفي مكان آخر يصف هذه الأمة بأنها (خير أمة أخرجت للناس ، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله) [١٣] .

وفي مقابل هذا يندّد القرآن بكل عمل أو نشاط خاطىء من شأنه أن يؤول إلى الفساد في الأرض والى هدم وتدمير المكتسبات التي يصنعها العمل الصالح بالصبر والدأب والمثابرة .. وهو من موقفه هذا يسعى إلى حماية منجزات الانسان الحضارية ووقف كل ما يعوق مسيرتها ونموّها ، وملاحقة أية محاولة لإنزال الدمار بها من الداخل تحت أي شعار كانت .. وهذه الحماية الحضارية لا تنصبّ – كما هو الحال في كثير من التجارب الوضعية – على الجوانب المادية من الانجاز البشري ، والتي يصطلح عليها أحياناً باسم (المدنية) ، تلك التي تواصل تصاعدها الدائم ، كمّاً ونوعاً ، بغض النظر عن منحنيات الموقف الحضاري بمفهومه الانساني الشامل ، لأن القاعدة التي يتحرك عليها هذا التصاعد، مادية صرفة ، تسعى إلى تجميع كافة المنجزات البشرية في هذه الدائرة وتسليمها للأمة الأنشط والأقوى لمواصلة تصعيدها ، الأمر الذي يجعلنا نعود فنربط نموّها ، لا ديموتها ، بالموقف الحضاري الشامل الذي تتخذه أمة من الأمم على كل المستويات ...

إن هذا مسألة ثانوية وهو يجيء دائماً في المرتبة التالية ، وأحياناً كنتيجة لقاعدة تسبقه وتفوقه أهمية تلك هي المنجزات الفكرية والأخلاقية والروحية والنفسية بمفهومها الانساني الشامل ، من أجل الصمود في المواقع التي بلغهـا

(١٢) آل عمران ١٠٤ – ١٠٥ .
(١٣) آل عمران ١١٠ .

الانسان وهو يواصل طريقه لإعمار العالم ، عبر سلسلة طويلة من كفاح مبعوثي الله إلى بني آدم ، ومن أجل ألاّ تصاب هذه المنجزات (الأساسية) بنكسة أو كارثة ترجع بحركة التاريخ البشري إلى الوراء وفقاً للمقاييس الانسانية أو مهما بقي التقدم المادي الصرف على صعوده وغناه ..

الاّ أن هذا لا يعني أبداً أن أي موقف (سلبي) ازاء حماية الانجاز المادي من الدمار يمكن أن يغيّره القرآن .. لأن الاصلاح والاعمار المنوطان بالاستخلاف مسائل تتداخل فيها كل الفاعليات الحضارية مادية وأخلاقية وروحية ، وان أي ضرر أو إفساد يلحق بأحدهما ينعكس – بشكل أو بآخر – على الجوانب الأخرى ، وهذا واضح بيّن في أكثر من آية (ولا تفسدوا في الأرض بعد اصلاحها . . .) [١٤] .

(قال : يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره قد جاءتكم بينة من ربكم ، فأوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم ، ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها ، ذلك خير ؟ إن كنتم مؤمنين) [١٥] .

(.. واصلح ولا تتبع سبيل المفسدين) [١٦] .

(ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون) [١٧] .

(أفمن اسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خيرٌ أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به في نار جهنم ، والله لا يهدي القوم الظالمين . لا يزال بنيانهم الذي بنوا ريبة في قلوبهم الاّ أن تقطّع قلوبهم والله عليم حكيم) [١٨] .

(١٤) الأعراف ٥٦ .
(١٥) الأعراف ٨٥ .
(١٦) الأعراف ١٤٢ .
(١٧) الروم ٤١ .
(١٨) التوبة ١٠٩ – ١١٠ .

(والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار) [١٩] .

(ولا تطيعوا أمر المسرفين . الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون) [٢٠] .

(يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالا طيبا ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدوّ مبين . انما يأمركم بالسوء والفحشاء وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون) [٢١] .

(كالذين من قبلكم كانوا اشد منكم قوة واكثر اموالا واولادا ، فاستمتعوا بخلاقهم فاستمتعتم بخلاقكم ، كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم ، وخضتم كالذين خاضوا . اولئك حبطت اعمالهم في الدنيا والآخرة واولئك هم الخاسرون) [٢٢] .

(الذين يصدّون عن سبيل الله ويبغونها عوجا وهم بالآخرة هم كافرون) [٢٣]

(وما اريد ان اخالفكم الى ما انهاكم عنه ، ان اريد الاّ الاصلاح ما استطعت . وما توفيقي الا بالله ...) [٢٤] .

(وليزيدن كثيرا منهم ما انزل اليك من ربك طغيانا وكفرا . والقينا بينهم العداوة والبغضاء الى يوم القيامة ، كلما أوقدوا ناراً للحرب اطفأها الله ، ويسعون في الارض فسادا والله لا يحب المفسدين) [٢٥] .

والقرآن الكريم لا يكتفي بتقديم هذه الصور الكالحة عن الإفساد الروحي والمادي وعما يؤول اليه من دمار لحضارة الانسان ، ولرقيه وتقدمه وسعادته ، ومن عرقلة لدوره في العالم كخليفة عن الله فيه ، ولكنه يطلب من الجماعة المؤمنة ان (تتحرك) لوقفه باسرع ما تستطيع وبأقصى ما تطيق ، لئلا يتحول

(١٩) الرعد ٢٥ .
(٢٠) الشعراء ١٥١ – ١٥٢ .
(٢١) البقرة ١٦٨ – ١٦٩ .
(٢٢) التوبة ٦٩ .
(٢٣) هود ١٩ .
(٢٤) هود ٨٨ .
(٢٥) المائدة ٦٤ .

الفساد الى فتنة عمياء لا ترحم احدا ولا تبقي وهي تدوّم فوق رؤوس الجماعة كلها ظالما أو مظلوما :

(فلولا كان من القرون من قبلكم اولوا بقية ينهون عن الفساد في الارض ، الا قليلا ممن انجينا منهم . واتبع الذين ظلموا ما اترفوا فيه وكانوا مجرمين . وما كان ربك ليهلك القرى بظلم واهلها مصلحون) [٢٦] .

(والذين كفروا بعضهم اولياء بعض ، الا تفعلوه تكن فتنة في الارض وفساد كبير ...) [٢٧] .

(واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة واعلموا ان الله شديد العقاب) [٢٨] .

إن القرآن يرفض ، في نظرته للمسألة الحضارية ، اشد ما يرفض ، مواقف التجزئة والفصل وإقامة الجدران بين مساحات التجربة البشرية ، ويرى فيها وحدة حيوية تسري فيها روح واحدة وتغذيها دماء واحدة .. إن تجزيئها وعزل بعض جوانبها — خلال العمل — عن بعض ، ليس خطأ فحسب ولكنها مسألة تكاد تكون مستحيلة ، اذا ما أردنا — مسبقاً — ان نصل الى نتائج صحيحة .

ومن خلال تحقق الشرطين السالفين : الإصلاح ووقف الفساد ومجابهته على كل المستويات ، واستنادا الى التعاليم الالهية التي يجيء بها الانبياء حينا بعد حين ، تمارس الجماعة البشرية المؤمنة خلافتها في الارض ، وتواصل (الحضارة) تقدمها ونموّها من خلال ارادة الانسان . وموقفه الفوقي على الكائنات ، وقدراته التي منحه الله اياها على التصوّر والتخيّل والتخطيط والتنفيذ والعقل والابتكار والابداع .. قدرات على مستوى العقل والروح والعاطفة والوجدان والجسد على السواء .. وليس ثمة شيء في العالم أو قوة في الكون ، غير قوة الله وحده ، بقادرة على ان تصدّ الانسان عن اهدافه ومطامحه التي قرر ان يسعى اليها .

(٢٦) هود ١١٦ – ١١٧ . (٢٧) الأنفال ٧٣ . (٢٨) الأنفال ٢٥ .

إننا هنا بازاء علاقة (تغاير) نوعي حاسم بين الجماعة البشرية المريدة القديرة الفاعلة ، وبين كتلة العالم والطبيعة التي لا تملك قدرة ذاتية ولا فعلا مرسوما لمجابهة الانسان .. انها اساسا ، وفق المعطيات القرآنية . قد سخرّت له تسخيرا ، وان الله سبحانه قد حدّد أبعادها وقوانينها ونظمها واحجامها بما يتلاءم والمهمة الأساسية لخلافة الانسان في العالم ، وقدرته على التعامل مع الطبيعة تعاملا ايجابيا فاعلاً .

وإذا ما اردنا أن نعتمد اصطلاحات (توينبي) ومقاييسه الحضارية ، في مسألة النموّ الحضاري هذه ، فاننا سنرى في العالم (تحدّيا مناسبا) للانسان ، ليس (معجزا) ولا هو دون الحدّ المطلوب لاثارة التوتر البشري للردّ .. وكأن ارادة الله سبحانه قد شاءت ان تقف به عند هذا الحدّ لكي يحقق المدى الأقصى من الحوار الخلاّق بينه وبين خليفته في الارض ، فلم يشأ ان يمهد العالم تمهيدا كاملا ويكشف للانسان عن قوانينه واسراره بالكلية لأن هذا نقيض عملية الاستخلاف والتحضرّ والإبداع التي تتطلب مقاومة وتحديا واستجابة ودأبا وإبداعا ، ولأنه يقود الأنسان الى مواقع السلبية المطلقة ويسلمه الى كسل لا تقرّه مهمة الانسان على الارض أساساً .

« .. ترى .. لو أعطى الانسان ، يوم خلقه ، المفتاح الذي يدخل به مباشرة الى ساحة الطبيعة ، فيدرك قوانينها دون عناء ، ويقفز الى الحضارة الخارجية بلا تدرج أو تطور ، أكان يشهد التاريخ البشري هذه الجهود العظيمة ، وتلك المحـاولات الدائبة ، وذلك التشبّث والسعي صوب الكشف والتحضير ؟ اكان يمكن أن يكون للبشرية تاريخ اساساً ؟ وما هو دور العقل اذن اذا كان بامكان العين ان ترى القانون الاكبر ، والاذن ان تسمعه ، واليد أن تلمسه ؛ ما هو — وهذا هو الاهم — دور الارادة الانسانية التي ركزها الله في الانسان ، والطاقات التي جهزه بها كي يكون للانسان امكانية التصدّي للغموض الطبيعي والحواجز الطبيعية ؛ ولماذا اذن جعل الله سبحانه في الارض هذه المشاكل والتعقيدات والصعوبات الطبيعية؟ أفيمكن ، دون أن يستثير اللهسبحانه عنصر التحدي

الارادي بين الانسان والطبيعة ، ان تكون هناك محاولة جادة لاستخدام العقل والارادة ، والتغلّب على الغموض والتعقيد ، ومن ثم التقدم والتحضرّ؟ ثم هل بمقدورنا ان نجد ثمة حضارة واحدة في تاريخ البشرية لم يسهم في بعثها الى الوجود هذا التحدي الأبدي بين الطبيعه والانسان ؟

ان أخلاقية الوجود البشري على الأرض تقتضي هذا الحوار الفعال بين الانسان والطبيعة ... هو يسأل وهي تتمنّع على الاجابة ، وهو يسعى اليها متسائلا قلقا ، وهي ترفض أن تفتح له أحضانها وتلقي اليه بكنوزها .. معنى هذا ان على الانسان ان يرفض الكسل والقعود ، ان يتخلى عن السعي الهادىء المطمئن الى رزقه وتأمين حياته ، وإحاطة وجوده على الارض بالضمانات .. إن عليه — كما اراد له الله سبحانه — ان يمشي ويتحرك ، ان يجد ويكد ، ان يستخدم كل الطاقات التي وهبها اياه من اجل تحقيق هذا الهدف وهو أن تردّ الطبيعة على جوابه وتسلم اليه القياد ..

في القرآن الكريم مئات الآيات والاشارات تنفح في الانسان هذا المعنى الحضاري العظيم ، وتعلمه أن حواره مع الطبيعة لن يثمر إلاّ بالسعي والكدح والحركة . من أجل هذا ايضا كان الإسلام — خاتم الرسالات ومصدّقها — دعوة حركية على هذا النطاق — كما هو دعوة حركية على النطاق الأكبر : نطاق العقيدة والدين والمنهج — حركة الانسان والشعوب والامم من الجهل والتخلف الى العلم والتحضرّ ، من الظلام الى النور ، ومن النظرة المسترخية الكسولة للطبيعة والاشياء ، الى التمعن المتوتر النشيط للطبيعة والاشياء .. هذه الحركة التي يطلب القرآن ان تكون متفجرة ابدا لا تكلّ ولا تملّ .. ثم يطلب منها — وهذا هو الاعجاز العظيم — الا تقصر سعيها على مستوى الأرض ، ويعلمها أن وطن الانسان ليس هو الارض فحسب ، بل الكون كله ! ! وكما انه يدعوه للحركة العقائدية في نطاق الكون كله ، فكذلك يطلب أن تكون حركته (العقلية) في نطاق الكون كله ، فالارض جزء من الكون ، والناموس الذي يحكم الأرض هو نفسه الذي يحكم الكون ، والله سبحانه خالق القوانين

والاوضاع والانسان (وهو الذي في السماء اله وفي الأرض اله) ! ومن ثم فإن اللقاء بين الحركتين ، حركة العقل وحركة الوجدان ، حركة الحسّ و حركة الروح ، حركة الذهن وحركة القلب ، هذا اللقاء القائم على التوافق والتوحد والانسجام سيكون محتما في المدى القريب والبعيد لأن كلتا الحركتين ستطلع الانسان على الملكوت وتقوده الى الله ... » (٢٩) .

إن الله سبحانه لم يشأ — من جهة أخرى — ان يجعل العالم على درجه من التعقيد والصعوبة الطبيعية والانغلاق والغموض يعجز معها الانسان عن الاستجابة والابداع . الامر الذي يتنافى — ايضا — ومهمته الحضارية التي أنيطت به كخليفة لله على الارض جاء لإعمار عالم غير مقفل ولا مسدود :

(ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض ولكن ينزل بقدر ما يشاء انه بعباده خبير بصير . وهو الذي ينزل الغيث من بعد ما قنطوا وينشر رحمته وهو الولي الحميد . ومن آياته خلق السماوات والأرض ، وما بث فيهما من دابة . وهو على جمعهم — اذا يشاء — قدير . وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت ايديكم ويعفو عن كثير) (٣٠) .

(الذي جعل لكم الأرض مهدا وجعل لكم فيها سبلا لعلكم تهتدون . والذي نزّل من السماء ماء بقدر فانشرنا به بلدة ميتا كذلك تخرجون . والذي خلق الازواج كلها وجعل لكم من الفلك والانعام ما تركبون . لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم اذا استويتم عليه ، وتقولوا : سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين) (٣١) .

والحق ان الآيات الخاصة بمسألة التسخير (المتوازن ، المناسب) هذا ، منبثة في مواضع من القرآن كثيرة لا تعدّ ولا تحصى ..

---

(٢٩) أنظر بالتفصيل : فصل (خطوات في مواقع العلم والدين) من كتاب (تهافت العلمانية) للمؤلف .
(٣٠) الشورى ٢٧ — ٣٠ . (٣١) الزخرف ١٠ — ١٣ .

إنه الحدّ (الوسط) الذي يتحدى الانسان الى نقطة التوتر والقدرة على الاستجابة والفعل والاعمار ، ويتجاوز التكشّف الكامل أو الانغلاق الكامل اللذين يستحيل معهما الفعل الانساني .

وثمة سؤال ملحّ يفرض نفسه هنا ، نظرا لارتباطه الوثيق بالمسألة التي نناقشها ، وهو : لماذا ترك الانسان — على المستوى الطبيعي — يجهد بنفسه ويبتكر ويكشف ويطوّر بينما أُلزم — على المستوى العقائدي الديني — بالاعتماد الكلّي على تعاليم السماء ؛ هل بمقدور الإنسان أن يبتكر بنفسه (المنهج) أو (الدين) الذي يقوده عبر الطريق ؛ ما هو السبب — بعبارة اخرى — في تعليق هداية الانسان الشاملة على نزول الاديان والتزامه بتعاليمها وما هو الفرق بين القانون الطبيعي والقانون الديني الاخلاقي ؛ ولماذا لم يكشف الله عن الاول كشفا كليا بينما قدم التعاليم النهائية الحاسمة عن القانون الثاني ؟

« في البداية يجب أن ندرك ، انه في المدى البعيد ، مدى علم الله الذي تنقطع دونه الاعناق ، في هذه الحياة الدنيا الاّ من ارتضى من رسول ، في مدى هذا العلم الالهي تنتفي هذه الثنائية بين القانونين : قانون الطبيعة وقانون الدين ، تذوب الحواجز وتتلاشى الفوارق ، ويلتقي كلا القانونين في مدى صنع الله وارادته ونواميسه الكبرى التي تسير ملكوت السماوات والارض بما عليها من جماد وحيوان . إن المادة نفسها — التي يرتكز عليها القانون الطبيعي — قد حطمها اليوم العلم نفسه .. لم تعد العينه الصلبه من المادة هي اساس الطبيعة . لقد كشف لنا العلم الحديث عن جانب خطير من القانون الطبيعي ، وعلمنا أن اساس البنية الطبيعية هي الحركة وليست المادة ، الذرات باشكالها المتناهية في الصغر تتحرك وفق مسارات معينة فتضفي الشكل المادي الخارجي للاشياء ، وهذه الذرات تتشكل هي الأخرى وفق حركة معجزة في كيانها الداخلي .. لكأنه تسبيح ابدي لكل قوى الطبيعه لربّ الملكوت (وإن من شيء الا يسبح بحمده ، ولكن لا تفقهون تسبيحهم) (٣٢) ، ولكأنه ايماء عجيب للانسان

---

(٣٢) الاسراء ٤٤ .

المعاصر بزيف هذه الثنائية التي قسمت خلق الله الى قسمين واقامت بينهما جدارا من التباعد والصمت والغموض . إن الحركة — بمعناها الشامل — هي أساس الوجود المادي تماما كما هي أساس الوجود الحيوي .. هذا ما كشف عنه العلم اخيرا ، وما هذا الكشف إلا جانب ضئيل مما يمكن أن يكشف عنه المستقبل القريب والبعيد .

ومهما يكن من أمر فإن السؤال يبقى على اهميته الفائقة في حياتنا الراهنة .. وجوابا عليه لا بدّ أن نتمعن قليلا في دور الانسان نفسه في هذا العالم ، الانسان بارادته وطاقاته وامكاناته ، الانسان بما هو إنسان .. ترى لو تركت للانسان حرية الكشف عن منهج الحياة بمفهومها الشامل (المنهج الديني) بنفسه ، اكان يمكن أن يصل الى بغيته ؟ اكان من السهل عليه تحقيق هدفه المنشود ؟ اذن لماذا لم تستطع المذاهب والمحاولات الوضعيه طيلة الاف السنين من عمر البشرية ان تحقق هذا الهدف ؟ اليس من العبث والتناقض ان يترك الانسان هكذا؟ يتعثر طوال حياته على الأرض ولا يجد من يهديه سواء السبيل ؟ ان يظل اسير جهله وتخبطه اللذين لا يرتفع من وهدة حتى يسقطانه في وهدة اعمق منها وابعد غورا؟ اليس من العبث والتضييع ان يهدر الانسان طاقاته الفاعلة في سبيل البحث عن المنهج والقيم الكبرى ، وهل بامكان الانسان اساساً أن يصل الى المنهج الامثل ، ويحدد — بموضوعية تامة — قيمه العليا التي يتحرك على ضوئها وبالتزاماتها ؟

في مجـــال الطبيعة والاشياء لم يشأ الله سبحانه ان يكشف للانسان عن قوانينها ، لأن هذا يعني اهمالا لطاقات الانسان الخلاّقة وقدرتها على الفعل والكشف والابتكار . ولو حدث وان وجد الانسان نفسه فجأة امام تكشّف النواميس الطبيعية على حقيقتها ، لألغيت — اذن — وبشكل محتم — كما سبق وان بينّا — جل قدرته ومحاولاته الإبداعية ، ولأسلم نفسه لكسل فكري واتكالية لم يرد الله للانسان ان يقع في إسارها ، اما العقيدة والمنهج والقيم الخلقية ، فهل كان من المنطق أن تظل غامضة . وان يسعى الانسان بنفسه للكشف عنها ؟ إن هذه القيم وتلك العقيدة وذلك المنهج ، ما داما يرتبطان اساساً بالعالم الأوسع ،

ويمتدان الى ما وراء الحسّ الظاهر للعيان . ما داما ينأيان دائما عن رؤية الانسان المباشر وحركته النسبية ، وحريته المحدودة ، ونسبيّته الحسّية ، فليس من السهل عليه — اذن — ان يترك وحده للسعي وراء اهداف لم يهيّأ للكشف عنها .

ان تجربة (الخطأ والصواب) تغدو مجدية في مجال التعامل مع الطبيعة لأنها ستعلّم الانسان دوما طريقة جديدة ، أو تمنحه ابتكارا جديدا . وما منجزات الغرب التقنيّة المعاصرة سوى (تراث) بشري اسهمت في صنعه وبنائه وتطويره معظم امم الارض وشعوبها بعد أن مارست كثيرا من تجارب الخطأ والصواب وما زال العلم الى الآن ينفي اليوم — بتجربيته — ما اثبته بالامس . ويثبت ما سوف ينفيه غدا . ولكن هذا النفي والاثبات وهذه الظنّية التي تحكم ميادين النشاط العلمي . لم تؤثر في يوم من الأيام على التطور المستمر للانجازات (المدنيّة) ، بل ان هذه — كما سبق وان ذكرنا — في صعود مستمر نحو الأكثر والأحسن والارقى ، الا اذا جوبهت بحرب عالمية شاملة لا تبقي ولا تذر ، وهذا أمر مستبعد الحدوث على الأقل في القرون القليلة التالية . او اذا أصيبت بعض أنحاء العالم المتقدم بنكسة جغرافية شاملة كما حدث مثلا بالنسبة لقارة (اطلانطا) التي يقال — ظنا — انها بلغت شأوا كبيرا من التقدم والتحضرّ ، وهذا امر احتمالي بعيد هو الآخر ...

اما في المجال العقيدي والاخلاقي والديني فلا يمكن للانسان انْ يمارس تجربة الخطأ والصواب لأن هذه ستكون على حساب كينونته ووقته وجهده ومصيره في نهاية الأمر . ولأنها — وهذا هو الأهم — لن تقدم له (الصواب) المطلق الذي لا خطأ بعده في يوم من الأيام ، ذلك أنه لا يملك (الوسائل) التي تمكنه من بلوغ هذا الصواب وتمحيصه على السواء . ثم ان عملية النفي والاثبات هنا ليست سوى عملية سلبية ، اذ أن (نفياً) كهذا سيوقع الامم والشعوب في فوضى لا حدّ لها ، وسيصيب الانسان نفسه بمشاكل ذاتية وقلق وتمزق داخلي يشلاّنه عن المضي في طريق الإبداع والتطوّر الحضاري .

لقد اعطى الله الانسان امكانيات خلاّقة وقدرات فذّة ورؤية عظيمة

واسعة الامداء ، لكن هذا وحده لا يكفي ، ان امكاناته وقدراته ورؤاه لما ارضية واسعة للسعي والحركة ، وان تقليص هذه الأرضية هي إهدار لطاقات الانسان أو تجميدها وهي – بمعنى أوسع – احتقار للارادة الانسانية . لكن هناك مدى أوسع بكثير من هذه الارضية ، ولو ترك الانسان وحده لظل يتحرك كالأعمى ، يقوم ويسقط ، الى أن يأتي يوم يسقط فيه في الهوّة التي لا قيام بعدها . ولقد حدث هذا فعلا لكل الناس والامم والشعوب التي تعبّدها (الوضعيون) من دون الله ، قالوا لها إن بامكانهم اعطاءها (العقيدة) والمنهج والقيم ، فسارت وراءهم رغباً ورهبا ، وتلقت عنهم دينها وقيمها ومناهجها ، بالأحرى عبدتهم من دون الله .. ولكن ما لبث أن سقط الأرباب والعبيد على السواء ... » [٣٣] .

ونعود ثانية الى مسألة (التسخير) .. ان هنالك آيات ومقاطع قرآنية عديدة تحدثنا عن هذا التسخير للعالم والطبيعة لخدمة الدور الذي انيط بالانسان في الارض ، وهي تمنحنا التصوّر الايجابي لدور الانسان الحضاري بنأى كلية عن التصورات السالبة لعديد من التفاسير الوضعية التي جرّدت الانسان من كثير من قدراته الفاعلة وحريته في حواره مع كتلة العالم ، وتطرف بعضها فأخضعه إخضاعا كاملا لمشيئة هذه الكتلة وارادة قوانينها الدايناميية الخاصة التي تجيء بمثابة أمر لاراد له ، وليس بمقدور الانسان الا أن يخضع ويساير ويتقبل هذا الذي تأمر به .

وسواء التزم التفسير الوضعي المنطق الديالكتيكي على مستوى الفكر الكلي غير المحدد ، كما فصل هيجل ، أو على مستوى المادة وتبدل وسائل الانتاج وظروفه (الخارجية) كما فعل ماركس وانجلز ، فان الإنسان يغدو تابعا وليس متبوعا ، وأن الانجاز الحضاري يجيء وكأن الانسان جزء منه أو مساحة من

(٣٣) أنظر بالتفصيل عن هذه المسألة الفصول ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ من كتاب (تهافت العلمانية) للمؤلف .

مكوناته فحسب ، وانه ليس أمامه الا ان يتشكل وفق مقتضيات مسيرة اكبر حجما من ارادته واوسع مدى من قدراته ومطامحه ونزوعاته الذاتية والجماعية على السواء .

اننا نلتقي من خلال القرآن بصيغة اخرى للعلاقة بين الانسان والعالم تختلف من اساسها .. صيغة (السيّد الفاعل المريد) الذي سُخرت وأخضعت له مسبقا كتلة العالم والطبيعة لتلبية متطلبات خلافته في الارض وإعماره للعالم على عين الله (وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بامره وسخر لكم الانهار ، وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار) [٣٤] .

(وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر) [٣٥] .

(وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا) [٣٦] .

(ألم تر ان الله سخر لكم ما في الارض ؟) [٣٧] .

(ولئن سألتهم من خلق السماوات والارض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله) [٣٨] .

(الم تروا ان الله سخر لكم ما في السماوات وما في الارض ؟) [٣٩] .

(وسخرنا مع داود الجبال يسبّحن والطير) [٤٠] .

(فسخرنا له الريح تجري بامره رخاء حيث اصاب) [٤١] .

* * *

(٣٤) ابراهيم ٣٢ – ٣٣ .
(٣٥) النحل ١٢ .
(٣٦) النحل ١٤ .
(٣٧) الحج ٦٥ .
(٣٨) العنكبوت ٦١ .
(٣٩) لقمان ٢٠ .
(٤٠) الأنبياء ٧٩ .
(٤١) ص ٣٦ .

نحو وعي إسلامي معاصر

بعد قرن أو نيف من الغزو الفكري والاستعمار والتغريب ، أصبح معظم «الوعي العصري» لدى المسلمين الذين تلقوا تربية غريبة ، هو وعي اسطوري قائم على معتقدات واهية ، فهذا «الوعي العصري» نتاج فترة من التاريخ لم يكن الاسلام مصدر ثقافتنا ووعينا ، حيث غلبت ثقافة التغريب .

وقد نتج عن هذه الحقبة من التاريخ مجمل الحركات والمباديء القومية والاقليمية الضيقة والتي ادت الى تمزيق وحدة الوطن الإسلامي ، ومحاولات التوفيق بين الإسلام ونقائضه كالرأسمالية والليبرالية وغيرها من المباديء الغريبة عنه .

لكن قطاراً من الأفكار والمحاولات النهوضية أخذ طريقه عبر الظلام ليعطي هذه الأمة مرة أخرى انتماءها وأصالتها وشخصيتها العظيمة وقامت بدورها الرائد من اعادة التوازن والثقة الى الأمة ، كما قامت بدور أكبر في حركة التحرر الوطني ضد الاستعمار وروافده قبل و بعد الحرب العالميتين ، الأمر الذي يفرض على جيلنا المزيد من الواجبات والمهمات في وجه التحديات الحالية وفي وجه الهجمة الغربية الصهيونية على وجودنا ومستقبلنا .

من هنا ، فإن علينا ان نحرر وعينا من الحدود الضيقة التي يفرضها الواقع ، وأن نرتفع فوق ما يقال له «الحقيقة» عندئذ سنشاهد المستقبل في ضوء القرآن ، وسنرى أن هذا التمزق والتجزئة ليس إلا نتاجاً لجيل التغريب ، لا أكثر ، وسنفاجأ أن الأبعاد الحقيقية «للحقيقة» أكبر من زمننا وظرفنا لذا ، فإن تغيير الواقع واقتحام أبواب المستقبل يتطلب استراتيجية ان الخطوة الأساسية هي أن نبدأ في إعادة النظر في مواقعنا و بيئتنا لا بد أن نأخذ في الإعتبار كل ما نمتلكه مهما صغر ، لا بد أن نتجاهل العوامل السلبية مهما كبرت في أعيننا ، لا بد أن نتحدى ونطرد الأشباح التي تستمر في الظهور في نفق تاريخنا المعاصر ، المفعم بالبرد والظلام ، باختصار يجب أن نحدث تغييراً شاملاً من إدراكنا وتفكيرنا وتطلعاتنا وأهدافنا باتجاه وعي إسلامي معاصر .